مكتوب فى الكتاب المبين ، ونحن فى الدنيا نجد الإنسان إن كان له دَين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التى تُسجِّل ما له وما عليه . ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيَّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجِّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شىء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلّمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هى من عند عالم الغيب سبحانه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد عَلم غيباً لأنه ولىٌّ لله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعَلَّمُ غَيْب» ؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك : الرجل الذى سُرق منه شىء ، هو لا يعرف أين يوجد الشىء الذى سُرق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا فى نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً .

وأيضاً أسرار الكون التى كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ، والسالب والموجب فى الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب [1] لينزل الماء ، كل ذلك كان غيباً فى زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدَّد لكل أمرٍ منها ميعادَ كشفٍ ؛ فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيباً أن يولد ، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العفن الأخضر حول بعض المواد العضوية فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذى اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات السفن والغواصات ، وكل ما يسير فى البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو صدفة .

إذن : ففى الكون غيب قد يصير مَشْهَداً ، إما بمقدِّمات يتابعها خَلْقُ الله بالبحث ، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شىء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذى بدأ من رجل رأى إناء مُغَطّى يغلى فيه الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

---

(١) يقول سبحانه : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين (٢٢) ﴾ [الحجر] والرياح لواقح أى : أنها تحمل حبوب اللقاح التى تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستدر السحب لينزل منها الماء . [بتصرف من اللسان] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التى تسير على عَجَل ، وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده لكى يتأمل ؛ ليكتشف سِراً من تلك الأسرار[1] .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها - دون مقدمات من الخَلْق - أكثر مما وُصِل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعبير الأدائى فى القرآن عن لونَى الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ..(٢٥٥)﴾ [البقرة]

هذا هو الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذى لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه :

---

(١) من الغيب ما يصير مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمة للبشرية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] ، وهناك غيب لله لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ[1] عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

إذن: فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحققت الأحداث كما جاءت فى القرآن.

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهِبَات وحدَّد من يعطيه بعضاً من الغيب :

﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة[2] ، وقال فيه الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به ؛ يهبه الله تعالى هبةً يراها الناس فيعرفون أن مَنْ يتّبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانهَ الهبات النورانية ، ولكن هذه الهِبَة ليست وظيفة ، وليست (دُكّاناً) للغيب ، بل هى مِنْ عطاءات الله تعالىَ.

---

(١) ظهر الشيء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى تبين ، وبرز بعد الخفاء ، قال الحق : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (٣٣)﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ..(٢٠)﴾ [الكهف] أى : إن ينتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصره عليه حتى تمكّن منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣)﴾ [التوبة] أى : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - القاموس القويم) .

(٢) الأسوة: القدوة . [لسان العرب : مادة (أ س ى)] . أى : الاقتداء بفعل الغير واتخاذه مثلاً يحتذى ، سواء أكان فى الخير أو فى الشر ، وشاع استخدامها فى الخير .

وانظـر إلى دقة القـرآن حـين يقـول :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ[1] .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : أنه سبحانه لم يُعْطِ مفتاح الغيب لأحد ، والولىّ من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قـول الحـق سـبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس]

نجد أن كلمة «ولىّ» من وَلِيَهُ ، يليه ، أى : قريبٌ منه ، وهو أول مَفْزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاجَ فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على مَنْ والاه .

ومَنْ يقْرُب عالماً يأخذ بعضاً من العلم ، ومَنْ يقرب قوياً يأخذ بعضاً من القوة ، ومَنْ يقرب غنياً ، إن احتاج ، فالغنى يعطيه ولو قَرْضاً .

إذن : فالولىّ هو القريب الناصر المُعِين المُوالِى .

وتطلق «الولى» مرةً لله سبحانه ، وقد قال القرآن :

﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ[2] .. ﴿٩﴾ ﴾ [الشورى]

(١) قال الزجاج : جاء فى التفسير أنه عنى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] . قال : فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه قد خالفه . [لسان العرب : مادة (ف ت ح)] .

(٢) تقول اللغة : الولى : هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة ، أو الولى الصديق ، وهو ضد العدو ، والولى : المطر بعد المطر والولى من يلى أمر إنسان ، ويقوم على شئونه ، كالوكيل ، ويجمع على أولياء ، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، يقول الحق : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس] والولى : من تولاه الله بالرعاية ، وتولى هو منهج الله بالسلوك للهداية ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس] (حرف الواو - القاموس القويم) .

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه ، عكس الخَلْق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولىّ المُطلَق ، فقُربه منْ خَلْقٍ لا يبعده عن خَلقٍ ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الولىّ الحقُّ ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .. (٤٤) ﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فَليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية.

ونجد التعبير القرآنى الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. (٦٢) ﴾ [يونس]

إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإنْ قُيِّدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهى مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين.

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فبطلاقة قُدرته سبحانه إذا رأى فى إنسان ما خَصْلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك.

وتسمع من يقول: إن فلاناً قد خُطف من المعصية أى : أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلة خيرٍ فيه ، فهداه.

ومثال ذلك : الرجل الذى سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفَّه

بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب ؛ فغفر الله - سبحانه وتعالى - له سيئاته [1] .

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة .

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته سبحانه تقدّر كل موقف كما قدَّرتْ اختلاف الخَلْق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ [2] وَأَلْوَانِكُمْ ..(٢٢) ﴾ [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجى ، وهذا بعضٌ من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خَلْقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبةً اصطفائية يراها الذين حوله وقد يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خَلْق الله ، فإذا علم سيئةً عن إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السَّتْر ويحب من يَستر .

---

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه (بفمه) فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له » . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات.

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألاّ يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألاّ تحتقر هذا المسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخَصْلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌّ فبحقّي عليك كن لي مُحباً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وفي هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله في يد الخَلْق ، ويضيف الحقّ سبحانه :

« وإنْ تقرَّب إليّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »[1] .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلّم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقرّبه الله منه أكثر وأكثر .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة . والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والذراع من المقاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية وهي ٣٢ إصبعاً أو ٦٤ سنتيمتراً . [المعجم الوسيط : ذرع] . والباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً ، والمراد : المبالغة في الاتساع [المعجم الوسيط : ب و ع] . والهرولة : الإسراع .

إذن : فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً .

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسانٌ يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه ، فما بالنا بعطاء الحق لعباده ؟

إذن : فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد فى معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً .

وقد قال أبو العلاء المعرى [1] لمحبوبته :

أنت الحبيبُ ولكنى أعوذ بهِ   من أن أكون حبيباً غير محبوبِ

أى : أنه يستعيذ بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبّه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحبُ الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمَّى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحَسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجَّح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجَّح بها

---

(١) هو أحمد [illegible] شاعر فيلسوف ، ولد ٣٦٣ هـ ومات فى معرَّة النعمان (٤٤٩ هـ) عن [illegible] فى الرابعة من عمره [illegible] هـ وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه . [الأعلام للزركلى (١/ ١٥٧)] .

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيّته ، وهو سبحانه الذي بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه وليّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور[1] . فقال :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتي بالمحسَّات ليبيِّن المعنويات ؛ لأن إلْفَ الإنسان أولاً بالمحسَّات ، وهي أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك .

وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شيء فنحطِّمه أو نصطدم بأقوى شيء فيحطمنا .

إذن : فَحَجْب المرائي يسبِّب الكوارث ، أما حين يأتي النور ؛ فهو يبيِّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن .

وهَبْ أنك في مكان مظلم ويوجد شيء آخر في مكان منير ، فأنت في الظلمة ترى مَنْ يوجد في النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء

---

(١) يقول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب] فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هي بلاغة الإعجاز في كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائى إلى المرئىّ ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامى واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدَّد أن المرئىّ هو الذى يصدر منه شعاع إلى الرائى ، وإذا ما كان المرئى فى ظُلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائى ؛ لرأى الإنسان فىّ الظلام .

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسّى ، فعالَـمُ القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر فى عالم الحسّ يمكن أن يحدث ، أما فى عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنانِ [1] لها التئامُ ... ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلِّم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجىء فى الخطاب .

وقوله سبحانه : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ..(٦٢) ﴾ . أى : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ أى : أن الحزن لن يأتى منهم ، والخوف يكون من توقع شىء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان : السهام والرماح . وجراحاتها : آثار الجروح نتيجة الإصابة بها . والالتئام : هو اندمال هذه الجروح . [انظر لسان العرب] .

يحدث فى المستقبل.

وفى حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه فى الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى وليّاً من أولياء الله وقد أصيب ابنه فى حادث أو مات الابن ، تجد الولىّ فى ثبات لأنه يعلم حكمة الله فى قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه.

إذن : فالخوف يأتى من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شىء فات.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا [1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ..(٢٣) ﴾ [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود.

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومَنْ لا يعرف حكمة الله تعالى فى الأشياء قد يقول : «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له.

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله.

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الورَع الذى يتجلَّى فى قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا» [2].

---

(١) الأسى : الحزن الشديد. وتمام الآية : ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً ، فلا يحزن على شىء فاته ، ولا يفرح بشىء جاءه قد يذهب بعد حين.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

ويبيّن الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والإيمان هو الأمر الاعتقادى الأول الذى يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر فى الأمر ، والنهى فى النهى، والإباحة فى الإباحة.

والتقوى - كما علمنا - هى اتقاء صفات الجلال فى الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ فى صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين:

«هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لَعلَى نور»[١].

وقد سُئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال: «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرباً من الله». وكأنه-رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ[٢] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ..﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع[٣] ، والخضوع[٤] ، والسكينة ، ورقَّة

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب ، وتمامه: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا: من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس].

(٢) سيماهم: علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور فى وجوههم.

(٣) خَشَعَ (خشوعًا) إذا خضع ، وخَشَعَ فى صلاته ودعائه . وقيل: بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعَتْ) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير].

(٤) وخضع لغريمه (يخضع) خضوعاً: ذلَّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقر: أذله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل فى الصوت ومنه: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ..﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] والخضوع فى الأعناق ومنه قول الفرزدق: خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

السَّمْت ، وانبساط الأسارير .

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد فى هذا الكون أى خَلَل ، بل يرى كل شىء فى موضعه تماماً ، ولا يرى أى قُبح فى الوجود ، وحتى حين يصادف القبح ، فهو يقول : إن هذا القبح يبيِّن لنا الحُسْن ، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناسُ الحقّ ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق .

إن وجود الشرّ يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال : كُنْ جميلاً فى دينك تَرَ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى ، وكلما تقرَّبت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق(1) .

ومثال ذلك : العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلَّمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلّم موسى عليه السلام(2) ، فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غَصْباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل : كيف تخرق سفينة سليمة؟ وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين(3) .

وحين قَتل العبدُ الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

---

(1) ويقول رسول الله ﷺ : « ما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٦) عن أبى هريرة .

(2) قال سبحانه عن موسى وفتاه فى لقائهما بالخضر عليه السلام : ﴿ فوجدا عبْداً مّنْ عبادنا آتيْناهُ رحْمةً مّنْ عندنا وعلّمْناهُ من لّدُنّا علْماً (٦٥) قال لهُ مُوسىٰ هلْ أتّبعُك علىٰ أن تُعلّمن ممّا عُلّمْت رُشْداً (٦٦) قال إنّك لن تسْتطيع معي صبْراً (٦٧) وكيْف تصْبرُ علىٰ ما لمْ تُحطْ به خُبْراً (٦٨) قال ستجدُني إن شاء اللّهُ صابراً ولا أعْصي لك أمْراً (٦٩) قال فإن اتّبعْتني فلا تسْألْني عن شيْءٍ حتّىٰ أُحْدث لك منْهُ ذكْراً (٧٠) ﴾ [الكهف] .

(3) وذلك أن موسى استنكر عليه فعله هذا فقال : ﴿ أخرقْتها لتُغْرق أهْلها لقدْ جئْت شيْئاً إمْراً (٧١) ﴾ [الكهف] فكان رده عليه فيما بعد : ﴿ أمّا السّفينةُ فكانتْ لمساكين يعْملُون في الْبحْر فأردتُّ أنْ أعيبها وكان وراءهُم مّلكٌ يأْخُذُ كُلّ سفينةٍ غصْباً (٧٩) ﴾ [الكهف] .

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله [1] ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاميص [2] الجنة .

ويقال: إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدّد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذى يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء في مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أي صحابي جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسّة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط في تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبدُ الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز ، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه [3] .

---

(١) قال موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾ [الكهف] فنبأه الخضر بتأويل ما لم يستطع فهمه [و] استيعابه فقال له : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف] .

(٢) دعاميص : هم صغار الأطفال ، فسر بالدويبة التي تكون في مستنقع الماء ، قال : والدُّعْموص : الدخّال في الأمور ، أي : أنهم سَيَّاحون في الجنة دَخّالون في منازلها ، لا يُمنعون من موضع ، كما أن الصبيان في الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحُرَم ، ولا يحتجب منهم أحد . [لسان العرب : مادة (دع م ص)] .

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة في كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف] . فقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢) ﴾ [الكهف] .

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مَثَل هؤلاء العباد كالصوارى المنصوبة التى تهدى الناس ، أو كالفنار الذى يهدى السفن فى الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

والبُشرى [1] : من البشْر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهى الجلد ؛ لأن أى انفعال فى باطن النفس الإنسانية إنما ينضح على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٍّ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيِّىء تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هى أول منفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : «بشرى» فهذا يعنى كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشِّر بخير .

وحين سئل رسول الله ﷺ عن البشرى ، قال : « إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها »، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» [2] .

---

(١) بشرَ بكذا ، ويبشر ، مثل : فرح ، وزناً ومعنىً ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من المخفف : بشير ، وهو البشير فى الخير أكثر من الشر ، والبشر . والبُشْرَى : فُعْلَى من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبِشْر : طلاقة الوجه . والبَشَرة : ظاهر الجلد . وبين البشرى بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد تفاعلٌ يظهر مرئياً فى السرور وغيره . [المصباح المنير - بتصرف] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» .

وقد أوحى للنبى ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه فى اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً.

والرؤيا ليست هى الحُلْم ؛ لأن الرؤيا هى شىء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل.

والمثل العامى يقول: «الجوعان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان[1].

إذن: فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام[2].

البشرى - إذن - هى الرؤيا الصالحة ، أو هى المقدمات التى تُشْعر خَلْق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أحبه الله تعالى فى السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام: «إنى أحب فلاناً فأحِبَّهُ. قال: فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء فيقول: إن الله يَحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يُوضع له القبول فى الأرض[3]».

---

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابىّ جاءه فقال: إنى حلمت أن رأسى قطع فأنا أتبعه، فزجره النبى ﷺ وقال: «لا تُخْبِرْ بتلعُّب الشيطان بك فى المنام» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٦٨).

(٢) أضغاث الأحلام: الرؤيا التى لا يمكن تأويلها لاختلاطها والتباسها ، والضغث: الحلم الذى لا تأويل له ولا خير فيه، وفى التنزيل العزيز: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ..(٤٤)﴾ [يوسف] أى: رؤياك أخلاط ليست برؤيا بينة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤)﴾ [يوسف] أى: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل. [لسان العرب: مادة (ض غ ث)]. وهم قالوا هذا لعجزهم عن تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك ، فلا تكون أضغاث أحلام

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة. واللفظ لمسلم، وتمامه عنده «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل. ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه. ثم توضع له البغضاء فى الأرض».

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن فى رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هى البشرى.

أو أن البشرى تأتى لحظة أن يأتى مَلَكُ الموت ، فيُلْقى عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

أو ساعة يبيضُّ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى فى الدنيا وفى الآخرة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣١) ﴾ [فصلت]

إذن : فهؤلاء الأولياء [1] يتلقون من فيوضات [2] الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هى أقل القليل فى التكاليف.

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

---

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلَّوا عن المعاصى وتحلَّوا بالطاعات فتجلَّى سبحانه عليهم بالفيوضات ومن هذا الفيض القبول والرؤيا الصالحة .

(٢) من عطاءات القبول باقى الآيات فى قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا نعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب .

فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلّى - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود [1] مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء فى الحديث القدسى :

«من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْلَهُ التى يمشى عليها ، وإن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» [2] .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ [يونس]

---

(١) وَدَّ : أحبَّ . والاسم : المودة . وودود ، أى : مُحبٌّ ، يستوى فيه الذكر والأنثى . [المصباح المنير] .

(٢) المساءة : نقيض المسرَّة ، وأصلها : مسوأة ، على مفعلة ، ولهذا ترد الواو فى الجمع فيقال : هى (المساوى) لكن استعمل الجمع مخففًا ، وبَدَتْ مساويه أى : نقائصه ، والسوءة : العورة ، والجمع : سوءات ، وسميت سوأة لأنها بانكشافها تسوء صاحبها . [المصباح المنير] .
والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) عن أبى هريرة .

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لا تبْديل لكلمات الله..﴾ فلن تجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة ؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً فى الدنيا لم يعد مالكاً لشىء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه:

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شىء يتأبَّى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبُشريات فى الدنيا وفى الآخرة فوز عظيم مؤكد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾

تجىء هذه الآية بعد أن بيَّن لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاَّ ينفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا: ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَر ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن: كَذَّبَ قولَهم فى أنه ﷺ سحر عبيدَهم وأولادَهم.

وقالوا: مجنون ، ولم يكن فى سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون ، وفنَّد أقوالهم هذه بقوله سبحانه:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ [1] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فالمجنون لا يكون على خُلُق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل ما قال [2] ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون [3] للشعر والأدب والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥)﴾ لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف أمام الدعوة ؛ لأن ﴿.. الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥)﴾ والعزة هي القوة ، والغلبة ، ويقال : هذا الشيء عزيز ، أي : لا يوجد مثله ، وهو سبحانه العزيز المُطْلَق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغلَب ولا يُقهَر .

وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف «الميم» فوق كلمة ﴿قَوْلُهُمْ﴾ [4] وتعني : ضرورة الوقف هنا .

---

(١) مَنَّ عليه بالعتق وغيره (مَنًّا) من باب قتل . وامتن عليه به : أنعم عليه به . والاسم المِنَّة ، والجمع (مِنن) والمُنَّة بالضم : القوة ، وهي من الأضداد . ومننت عليه : أي : عددت له ما فعلت له من الصنائع . وفي هذا تكدير وتعيير تنكسر منه القلوب . لهذا نهى الشارع عنه في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] . ومننت الشيء أيضاً إذا قطعته فهو ممنون . والمَنّ : شيء يسقط من السماء . فيجنى . [المصباح - بتصرف] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [يونس] .

(٣) مرتاضون للشعر : أي : لهم دُرْبة على قول الشعر ونَظْمه .

(٤) وهذا هو الوقف اللازم ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ .. (٣٦)﴾ [الأنعام] .

ولسائل أن يقول:

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنىٌّ على الوصل ؛ وآخر حرف فى كل سورة تجده مُنوَّناً ، وليس فى القرآن ما يُلزِم الوقف للقارىء ؟

وأقول رَدّاً على هذا التساؤل: إن العلماء حين لاحظوا ضعف مَلَكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارىء - الذى لا علم له بالبيان العربى - كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ .. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٦٥) ﴾ إلى ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥) ﴾ . ويخطىء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هى أمر يُحزن النبى ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقّق القراءة ونُحْسِن الفهم.

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ .. وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥) ﴾ ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥) ﴾ ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألاَّ تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغيّر فى مجرى حتمية انتصارك عليهم.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ فى أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هى البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا[1] أَنفُسُهُمْ ..(١٤) ﴾ [النمل]

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم. واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين. [لسان العرب: مادة (ى ق ن)].

وأقوالهم لن تقف فى سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هى القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجّة ، وقد تكون عزة حلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة فى كل محيط وفى كُل مجال ، شاملة لكل شىء وأى شىء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر [1] فى هذه الآية ؟

أى : أن تأتى الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول : «لزيد مالٌ ليس لغيره» . وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلّق - فنقول : «لفلان كذا» ، وهذا يعنى أن غير فلان ليس له كذا .

وإنْ قلنا : «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولفلان كذا ، ولفلان كذا ، ولفلان كذا» .

أما إذا قلت : «لفلان كذا» فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شىء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ . . إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . (٦٥) ﴾ وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذى يعطى العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائى يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص ، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ؛ وكل منهما إما حقيقى وإما مجازى . [الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - ٣/ ١٤٩] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتى قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم [1] العزة لنفسه وقالوا:

﴿ . . لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ . . ⑧ ﴾ [المنافقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن : فالعزة قد ادُّعيت ، وما دامت قد ادعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر؟

نقول : لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول :

﴿ . . وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . ⑧ ﴾ [المنافقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ . . إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . ﴾ أى : فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو

---

(١) هو عبد الله بن أبيّ رأس النفاق فى المدينة ، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال : « قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سَمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم » . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١) .

العـزيز ، وإن كـانت عـزة الحلـم فـهـو الحليم ، وإنْ كـانت عـزة الغـضب والانتقام فهو المنتقم الجبّار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى:

﴿ . .هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس]

وما دامت العزة هى الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجىء بالسمع ، وإنْ كان فيه فعل ، فهو يأتى بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل.

ونحن نعلم أن المنهىَّ عنه هنا هو: ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . .﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿هُوَ السَّمِيعُ . .﴾ أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلِّل على هذه القضية دلالة كونية فى آيات الله تعالى فى الكون ، وليس فى الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلحظ أن قانون «العزة لله جميعاً » محكوم بأن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض.

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[1] ﴿٦٦﴾ ﴾

فالحق سبحانه - إذن - لن يَخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه.

وساعة تجد الحق سبحانه يبيِّن الشىء وضده ، فهو يأتى بالقانون والإطار

---

(١) يخرصون : يتبعون ظنونهم وكذبهم وإفكهم [تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤)].